القصص الديني

الحلقة الأولى

قصص الأنبياء

تحقيق الرؤيا

9

عبد الحميد جودة السحار

١

لم يَسمع يوسُفُ كلامَ امرأةِ العزيز ، لأنه ما كان يحبُّ أن يخونَ سيِّدَهُ الذى رَبَّاهُ . فدبَّرَتْ له امرأة العزيزِ مَكيدةً عندَ زوجِها ، وقالت له : إنَّ النساءَ فى كلِّ مكانٍ يتحدَّثنَ عنى وعن يوسفَ حديثًا رديئا ، ويُقُلْنَ كلامًا مؤذِيا . فالأَحْسَنُ أن يدخُلَ السجن ، حتى يعْرِفَ الناسُ أنَّ يوسفَ هو الذى كان يريدُ الاعْتِداءَ علىَّ ، ولهذا سُجِنَ .

عندَ ذلكَ أُدخِلَ يوسفُ السجن ، ودخَلَ السجنَ معه فَتَيان ، فتعَرَّفا به ، وصارَ الجميعُ أصحابا .

وفى ليلةٍ نام هذان الفتيان ، فرأى كلٌّ منهما حُلْمًا لم يَعرِفْ له تفسيرا .

وفى الصباحِ طلبا من يوسفَ أن يفسِّر لهما الرؤيا .

قال أحدهما :

- لقد رأيتُنى فى المنامِ أعْصِرُ عِنَبا ، وأصْنَعُ منه خمْرًا ، وأسْقِى الملِك .

وقال الآخر :

- رأيتُ على رأسى خُبْزًا تأكُلُ الطيرُ منه ، فأخْبِرنا بتأْويلِ هذا الحُلُم ، إنَّا نراكَ رجلا طيبا صالحا .

فقال لهما يوسف :

- مهما رأيتُما من حُلْم فإنِّى أُعَبِّره لكما قبلَ وقوعِه ، فيكونُ كما أقول ، وهذا من تعليم اللّه لى لأنِّى مؤمنٌ به ، موحِّدٌ له ، مُتَّبِعٌ مِلَّةَ آبائِى إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب ، ما كان لنا أن نُشْرِكَ باللّه من شىء .

يا صاحِبَى السِّجن .. أيُّهُما أفْضَل : أأربابٌ كثيرون مُتَفرِّقونَ لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا ، أو

إله واحدٌ عظيمٌ قادر ؟ إنَّ الآلهةَ التى تعبُدونَها آلهةٌ كاذبة ، واللّه أَمَرَنا أن نعبُدَهُ هو لأنّه خلقَنا ورزَقَنا . ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لا يَعلَمون .

﴿ يا صاحِبَى السِّجنِ ، أَمَّا أَحدُكُما فَيَسْقى ربَّه (يعنى سيِّده) خَمْرا ، وأَما الآخرُ فَيُصْلَبُ فتأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رأْسِه » .

وعرف يوسفُ أنَّ ساقِى المَلِكِ هو الذى سينجو من السِّجْن ، فقال له :

ـ اذكُرْ أمرِى وما أنا فيهِ من السِّجنِ دونَ ذنبٍ عندَ المَلِك .



خرجَ ساقى الملِكِ من السِّجن ، وصُلِبَ الرَّجلُ الآخَر ، كما قال يوسف . ولكنَّ السَّاقى نَسِىَ أن يذكُرَ للملِك أمْرَ يوسُف ، فبقِىَ فى السِّجن عِدَّة سنين .

وفى ذاتِ ليلـةٍ نـام الملـكُ ، فـرأى فـى نومِـهِ أنـه جالِسٌ على شـاطئِ النهـر ، وقـدْ خَرَجَـتْ منـه سبْعُ بَقـراتٍ سَـمِينة ، ثـمَّ خَرَجَـتْ بعدهـا سبْعُ بقـراتٍ هزيلة ، وذهَبَتِ البقراتُ الهزيلةُ إلى البقراتِ السـمينةِ فأَكَلَتْها . فقام الملكُ من نومـه مفزوعـا . ولمـا ذهَـبَ خَوفُه عاد إلى نومه فـرأى فـى الحُلْمِ سَـبْعَ سُـنْبُلاتٍ خُضْر ، تأْكُلُها سَبْعُ سنبلات يابسات ، فقام من نومه وهو خائف .

وفى الصباحِ جمعَ المِلكُ رجالَه وقصَّ عليهم ما رآه فى حُلْمِه . فلم يَعْرِفْ أحَدُهم كيف يفسِّرُ هـذا الحلم ، عندئذ تذكَّرَ الساقى أنَّ يوسُف يُجيـد تفسيرَ الأحلام . فقال للملك :

- أرْسِلنى إلى يوسُفَ فى السِّجن ، وأنا أُفسِّرُ لكـم هذا الحُلْم .

فأَرسلَه الملك إلى يوسُف . فقال له :

« يوسُف أيُّها الصِّدِّيق ، أَفْتِنا (أى أخبِرنا) فى سبعِ بقراتٍ سِمان ، يأْكلُهُنَّ سبْعٌ عِجاف ، وسبع سُنْبُلاتٍ خُضْر وأُخَرُ يابِسات ، لَعلِّى أَرجِعُ إلى النّاسِ لعلّهم يعلَمون » .

فقال له يوسُف :

ـ ستأْتِى سَبْعُ سنواتٍ يكثُر فيها الزَّرعُ والثِّمار ، ثم يأْتِى بعدها سبعُ سنينَ يقلُّ فيها الزَّرعُ والثِّمار ، فَعلَيكم أن تزرعوا باجتهادٍ سبعَ سنوات ، فإذا حَصَدْتُمُ القمحَ فاترُكوه فى سُنْبُلِه ، إلاَّ القمحَ الذى تحتاجونَ إليه لتأْكلوه ، فإذا جاءَت السِّنون التى لا زرعَ فيها ، أَكلتُم مما ادَّخَرتُم فى سنواتِ الرَّخاء . ثم تأتى بعد ذلك سنةُ رخاءٍ يَعْصِرُ فيها الناسُ العِنَبَ والقَصَبَ والسِّمسم ويشبعون ويتمتعون .

وعاد الرجل إلى الملك وذكر له ما قاله يوسف ، فأُعجبَ الملكُ به وأرسَلَ ساقِيه إلى يوسُف ، وأمَرَهُ بأنْ يُحْضِرَهُ ليكونَ من أصحابِ الملك . فلم يقبَل يوسُف أن يذهبَ إلى الملكِ قبلَ أن يُثْبِتَ له أنّه حُبِسَ ظُلْما . فقال للرجل :

ـ ارجِع إلى الملكِ واسألْه أن يحضرَ النساءَ اللاتى قَطّعْنَ أيديهنَّ ، ويسألَهُنَّ عن حقيقةِ ما حدثَ منّى . لِيعلَمَ أَنّنى برىءٌ مما نُسِبَ إلىّ .

فأَرسَلَ الملكُ إلى النسوةِ وسأَلَهُنَّ عن يوسُف ، فقلن :

ـ إنّه رجُلٌ كريمٌ ، ولم يحدُثْ منه شىء قبيح .

ورأتِ امرأةُ العزيزِ أنَّ الحقَّ قد ظهَرَ ، فقالت :

ـ أنا طَلَبْتُه لنفسِى ، ولكنّه امتنعَ . إنه برىءٌ ؛ وإنه حُبِسَ ظُلما .

فلما عِلمَ الملكُ ذلك ، عرَف أنَّ يوسُف رجلٌ ذكىٌّ

وأَمين ، ورأى أن يستفيد من علمه وأمانتِه ، فقال : ائتونى به .

وجاءَ يوسف وكلَّمَ الملِك ، فظهرَ له أنَّ يوسُفَ ذكىٌّ مُخلِصٌ أمين ، فقال له :

ـ إنَّكَ اليوم مُعزَّزٌ مُكرَّم .

فقال له يوسُف :

ـ إنَّ البِلادَ مُقبلةٌ على رخاءٍ ثم جَدْب ، فاجعلْنى على خزائِن الدولة ، لأنِّى أمينٌ على ما تحت يدى ، أَصرِفُه فى الصَّواب ، وأحفظ الباقى لأيامِ الشِّدَّة .

٣

أَصبَحَ يوسف وزيرا للملِك ، وأصبَحَ كلُّ شىءٍ فى يده .

ومرَّتْ سنواتُ الرَّخاء وجاءَت سنون الشِّدَّة ، فأَخذَ يوسُف يوزِّعُ على الناسِ من القمحِ الذى خزَنَه من أيام

الرَّخاء ، وأحَسَّت البلادُ بالشِّدَّة ، فكـان النـاسُ يـأْتونَ من البلادِ المجاورة لمصرَ ليأْخذوا حاجتهم .

وفى ذاتِ يوم ، دخل إخوةُ يوسُف عليه ، فعَرَفهم ولم يعرفـوه . فمـا كـانوا يحسِبُون أنَّ يوسُف يُصبِحُ وزيرا ، وسألهم :

ـ كم عددكم ؟

فقالوا له : نحن اثنا عشرَ رجلا . ذَهَبَ منا واحد ، وصغيرُنا عند أبينا .

فأَكرمَهم وأطعمَهم ، ثم قال لهـم : اذهبـوا فـأْتونى بأَخيكم معكم لأُعطيكم ما طلبتم . فإذا لم تأْتونى به ، فلنْ أعطيكم شيئا .

فقالوا :

ـ سنجتهد فى مجيئه معنا .

وذهبوا يستعدُّون للعودة ، فأَمَرَ يوسـفُ خدمـه أن

يضعوا لإِخوتِه بضاعتهم التى جاءُوا بها ليبادلوا عليها بالقمح ، فى أَوعيتهم .

وعادوا إلى أبيهم ، فلمَّا قابلوه قالوا له :

ـ إنْ لَمْ تُرْسِلْ معنا أخانا ، فلنْ يُعطُونا شيئا .

فقال لهم :

ـ إننى لا آمَنُ عليه أحدًا ، وأخشى أن تفعلوا به ما فعلتم بيوسُف .

فقالوا : يا أبانا ، إن ما نقوله صحيح ، وهذه بضاعتنا التى أخذناها لنبادل عليها قد ردَّها الوزير ولم يَقْبَلْها .

فقال :

ـ لنْ أُرسِلَه معكم حتى تحلِفوا لى أن تحافظوا عليه .

فحلفوا أن يُحافِظُوا على أخيهم ، واستعدَّ

للذهاب إلى مصر ليُحضِروا منها القمـح . فقـال لهـم أبوهم :

ــ لا تدخلـوا المدينـةَ مـن بـابٍ واحــد ، ولكـن ادخلوا من أبوابٍ متفرِّقة .

قال لهم هذا ، لأنّه كـان يخشَـى أن يُصِيبهـم شَـرٌّ ، فلا يُصيبهم كلّهم فى وقتٍ واحد .

وسـافروا حتـى إذا دخلـوا علـى يوسُـف ، أخـذَ يوسُف بنيامينَ بعيدًا ، وقال له :

ــ أنا أخوكَ يوسُف ، فلا تذكُرْ ذلك لإخوتِك ..

فسُرَّ بنيامين بلقـاء أخيـه ، وأرادَ يوسـف أن يـأْخذَ بنيامين منهم ، فقال لخَدَمه :

ــ ضعوا سقاية الملـك التـى يشـرب بهـا فـى متـاع بنيامين .

فوضعوها .

وحزم إخوةُ يوسُف أمتِعتهم ، وحمَّلوها على الجمال وخرجُوا .

وعند ذلك نادى عليهم أحد الحُرَّاس قائلا : إنكم لسارِقون .

فعادوا نحو المنادى وسألوا : ماذا ضاعَ منكم ؟

قال : سرقتم سقاية الملك التى يشربُ بها .

قالوا : فَتّشونا ، فما جئنا لِنَسرِق .

قال : فما جزاءُ مَن وُجدَتْ مَعَه ؟

قالوا : جزاؤُه أن تأْخذُوه أسيرا .

وجاءَ يوسُف ، وفَتَّشَ أمْتِعتَهم قبلَ متاع أخيه ، ثم فتّش متاع أخيهِ واستخرج منه سقاية الملك ، وأخذَ أخاه جزاءً على وجودِ السِّقايةِ فى متاعه .

وقال إخوته :

« إنْ يسرِق فقد سرقَ أخٌ له مِن قبْل » .

فعرَفَ يوسُف أنهم يقصِدونه ، ولكنه لم يستطِع أن يردَّ عليهم ، حتى لا تنكشِفَ حيلتُه ، وقال في نفسه :

« أنتم شَرٌّ مكانا ، واللّه أعلمُ بما تَصِفون » .

وتذكروا أنهم حَلَفوا لأبيهم أن يُحافِظوا على أخيهم ، فقالوا ليوسف :

« يا أَيُّها العزيز ، إنَّ له أَبًا شَيخًا كبيرا ، فخذ أَحدَنا مكانه ، إنّا نَراكَ من المُحْسِنين » .

قال : « مَعاذَ اللّهِ أَن نأْخذَ إلاّ مَنْ وَجَدْنا متاعَنا عِنْدَهُ ، إنّا إذنْ لَظالِمُون » .

ولما يئسوا من أن يأخذوه ، اجتمعوا يتشاوَرُون ، فقال كبيرهم :

ـ لقد حلفْنا أَن نحافظ عليه ، ولا أَستطيعُ أَن أُقابِلَ أَبانا وبنيامينُ ليس معِي .

ـ وماذا ستفعل ؟

ـ سأَبقَى هنا حتى أَردَّ أَخى ، أَو يأْذنَ لى أَبى بالعودة .

ـ وماذا نفعل نحن ؟

ـ« ارْجِعُوا إِلى أَبيكم ، فقولوا : يا أَبانا إِنَّ ابنك سرَق » .

فعادوا إلى أبيهم ، فلما سأَلهم عن بنيامين ، ذكروا له ما حصل ، فلم يُصَدِّقهم ، ، وقال لهم :

ـ إنَّ ابنى لا يسرق .

قالوا : اسألِ الناس الذين كانوا معنا ، فقد اشتهر هذا الأمر بينهم .

قال : لقد فعلتم به ما فعلتم بيوسُف ، وإِنِّى أَرجُو أَنْ يأَتيَنى اللّه بهم جميعا .

٤

حـزن يعقـوب على بنيـامين ، وتجـدَّد حزنـه علـى يوسـف ، وأخـذَ يبكـى حتـى فقَـدَ بصـرَه ، ولاحـظ أبناؤه كثرة بكائه .. فقالوا له :

ـ ستظل تذكر يوسُف وتبكى عليـه حتـى تضعـفَ أَو تموت ، فالأَحسْن أَنْ تَتْرُكَ البكاءَ .

فقال لهم : لستُ أَشكو إِليكـم ، ولا إلى أَحـد مـن الناس ، إِنما أَشكو إِلى اللّه ، وأَعلم أَنَّ اللَّـه سـيرحمنى ويخلِّصنى مما أَنـا فيـه . يـا بَنـىَّ ، اذهبـوا فـابحثوا عـن يوسف وأَخيه ، ولا تيئَسوا من الفَـرَجِ بعـدَ الشِّـدَّة ، لأَنَّهُ لا ييئس من فرج اللَّه إِلاّ الكافرون .

٥

عاد إِخوة يوسف إلى مصر يطلبـون مـن العزيـز أَن يتصدَّق عليهـم ، ويعفـوَ عـن أَخيهـم . فلمـا دخلـوا عليه ، قالوا له :

ـ يأَيُّها العزيز ، أَصبحنا فى حال شـديدة ، وليـس معنا إِلا بضاعة رديئة ، فأَعطنا ممـا عنـدك ، وتصـدَّق علينا بردِّ أَخينا .

فقال لهم يوسف :

« هلْ عَلِمْتُم ما فَعَلْتم بيوسف وأَخيه ؟ » .

فنظروا إليه طويلا ثم قالوا :

« أَئِنَّكَ لأَنْتَ يوسُف ؟ » .

« قال : أَنا يوسف ، وهـذا أَخـى .. قَـد مَـنَّ اللّـه علينا » .

فقالوا له :

- واللّه لقد فضَّلَك اللّه علينا . فسامِحنا فيما فعلناه معَكَ يا أَخانا .

قال :

- لا تخافوا ، فلنْ أُعاقبكُم على ما كان منكم ، واليوم يغفرُ اللّه لكم وهو أَرحَمُ الرَّاحِمين .

وسأَلهم عن أَبيه ، فقالوا له :

- لقد فَقَدَ بصره من كثرة البكاء عليك .

فخلَعَ قميصَه وأَعطاه لأَخيه الذى كان قد قال لهم : لا تقتلوا يوسُف وأَلقوه فى الجُبِّ ، وقال له : اذهبْ بقميصى هذا ، فأَلقِهْ على وجْهِ أَبى يَأْتِ بَصيرا ، وأْتونى بأَهلِكم أجمعين ، ليعيشوا هنا فى مصر فى هذا الرَّخاء العظيم .

٦

وقف يعقوب ينتظر عودة أبنائه ، فلما قربوا ، استنشق الهواء بقوة ، وقال لمن حوله :

- إِنِّى أَشَمُّ ريح يوسُف .

فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا :

- ستعود إِلى الوهم القديم . لقد مات يوسف وأَكله الذئب من سنين .

ووصل أبناءُ يعقوب ، فوضعوا قميص يوسف على وجهه ، فرجع إِليه بصره ، وقال لأَولاده :

- ألم أَقل لكم ، إِنِّى أعلمُ أَنَّ اللّه سيَجمَعُ شَملِى بيوسف .

قالوا : يا أبانا ، استغفر لنا ربنا .

قال : سوفَ أَستغفرُ لكم ربِّى ، إِنَّه هو الغفور الرحيم .

وحمل يعقوبُ أَهْلَهُ وذهب إِلى مصر . وقبلَ أَن

يبلُغَها ، قابلـه يوسـفُ فـى الطريـق ، وأَكـرَمَ أَبويـه ، وسار معهما حتّى إذا وصل إلى مصرَ قال لهم :

« ادخلوا مصر إن شاء اللّه آمنين » .

ودخل يوسفُ وجلَسَ على كرسيِّه ، فانحنى له أبوه وأُمُّهُ وإخوتُه تعظيما له ، فقال يوسف لأَبيه :

« يا أَبَتِ ، هذا تأْوِيلُ رؤيايَ مـن قبـلُ قـد جَعَلَهـا رَبِّى حقًّا » ، وجعلنى حاكمـا بعد أَن أَخرجنى مـن السِّجن ، وجاءَ بكـم مـن الصحـراء ، بعـد أن فـرَّق الشيطانُ بينى وبـينَ إِخوَتـى ، إنَّ ربِّـى إذا أرادَ شيئا أَوجَدَ أَسبابَه وحقّقه .

٨

اجتَمعَ نساءُ الأمَراء وبناتُ الكُبَراء ، وتحدَّثْنَ عن امرأةِ الوزير ، وكُنَّ يَلُمْنَها على حُبِّها ليوسُف ، قلن :

ـ امرأةُ العزيزِ تَعرِض نفسها على يوسُف . إنَّها امرأةٌ سَيِّئة .

وسمِعَت امرأةُ العزيزِ بتَشْنيعِ النِّسوةَ ، لأنَّها أحبَّتْ فتاها ، فَغَضِبَت ، وأرادَتْ أنْ تُظْهِرَ لهنَّ عُذرَها ، فأرسَلَتْ إليهِنَّ فَجَمَعَتْهُنَّ فى منزِلِها ، وأحضَرَتْ لهنَّ تُفّاحًا ، وآتَتْ كلَّ واحِدةٍ منهنَّ سكّينا ، ثم ألبست يوسُف أحسَنَ الثياب ، وأمَرَتْهُ أن يخرج عليهِنَّ ، فخرَجَ يوسُفُ عليهن بجماله ، فلما رأينَه لم يُصَدِّقنَ عيونَهنَّ ، فما كان فى بنى آدم أحسَنَ منه ، وأخذنَ

ينظُرْنَ إليـه فـى دهـش ، ونسـينَ أنْفسَـهُنَّ ، وجَعَلْـنَ يحزُزنَ فى أيديهِنَّ بالسَّكاكين بدلَ أن يقطِّعنَ التُّفاح ، ولا يَشْعُرْنَ بالجراح ، وقُلْنَ :

﴿ حـاشَ للهِ ، مـا هـذا بَشَـرا ، إنْ هـذا إلا مَلَـكٌ كريم ﴾ .

فقالت امرأة العزيز لهن :

ــ هـذا الـذى لُمْتُننى فيـه ، وقـد طلَبْتُـه لنفسـى فامْتَنَع ، ولَئِن لم يفعَلْ ما آمُرُهُ به ليُسْجَنَنَّ .

فقالت له النسوة :

ــ لماذا لا تسمعُ لسيِّدتِك ؟

قال :

﴿ ربِّ السِّجْنُ أحبُّ إلىَّ مما يَدْعوننى إليه ﴾ .

وامتنع يوسُفُ عن أن يُطيع كلامَ سيدته ، لأنه كان يخاف الله .